حوار مع قسطنطين زريق

هل يكون العرب في صناعة التاريخ من أبناء الماضي أم من أبناء المستقبل؟

أجرى الحوار
• وضاح شرارة



صدر اخيرا مؤلف كبير بعنوان « نحن والمستقبل » للدكتور قسطنطين زريق ، وهو من الذين كان القارىء العربي يلقاهم طوال اربعين سنة عند كل منعطفات تاريخه المعاصر : من معارك الاستقلالية قبيل الحرب الثانية الى الحرب الاهلية اللبنانية ، مرورا بالنكبة الفلسطينية وبروز الاتجاهات القومية العربية الى هزيمة حزيران (يونيو) .. الخ ...

في هذه الاحداث كافة ، كان فكر قسطنطين زريق مشدودا الى الهدف المباشر والى محاولة عقلانيته .

ولما كانت مجلة « الفكر العربي » تطمح الى ان تشارك في ادراك الحدث المزدوج المذكور ، رأت ان محاورها المتميز في هذا الحقل هو الدكتور زريق الذي استقبل المجلة مرتين في مطلع ايار (مايو) ، وكان هذا الحديث :

● يكاد يختفي قسطنطين زريق وراء اعماله وانتاجه الفكري . فهل له ان يقدم ملامح سيرة ذاتية ؟

ــ ولدت في دمشق سنة ١٩٠٩، وتلقيت دراستي في الابتدائية والثانوية في دمشق، في المدارس الاورثوذكسية ثم انتقلت الى بيروت . درست في المدرسة الاستعدادية التابعة للجامعة الاميركية وقضيت فيها السنة الاخيرة ، وتخرجت منها سنة ١٩٢٤ ثم التحقت في الجامعة ذاتها ، وتابعت دراستي في الرياضيات وبعدها انتقلت الى التاريخ . وعندما تخرجت (١٩٢٨) انتدبتني الجامعة بمنحة ، لاكمال اختصاصي في الولايات المتحدة الاميركية . فدرست فيجامعة شيكاغو ونلت منها درجة ماجستير ثم انتقلت الى جامعة هيوستن ونلت منها شهادة الدكتوراه . عدت الى الجامعة وبدات تدريس التاريخ العربي والحضارة العربية . وكان هذا

الكرسي قد شغر عندما استقال الدكتور فيليب حتي من الجامعة الاميركية في اوائل العشرينات وذهب ليدرس في جامعة برنستون ، في الولايات المتحدة الاميركية ، بدعوة من تلك الجامعة . مارست التدريس ابتداء من اوائل السنة الدراسية سنة ١٩٣٠، وتابعت هذا الامر الى اوائل سنة ١٩٤٥ ، عندما بدأت سورية تمارس حياتهاالاستقلالية، فأسست وانشأت جهازها الدبلوماسي ، فدعيت عند ذلك لالتحق بالبعثة السورية الاولى للولايات المتحدة . كنت مستشارا اولا في السفارة السورية في الولايات المتحدة . ثم توليت السفارة وحتى اواخر سنة ١٩٤٧ . وعدت الى الجامعة الاميركية نائبا لرئيس الجامعة واستاذا للتاريخ .

● سبب العودة ؟

ـ سبب العودة هو انني وجدت ان مهمتي الاساسية وميلي الاساسي هما الى الخط الذي كنت بدأت به ، وهو التدريس والبحث العلمي والجو الجامعي ، آثرت ان اتابع هذا الخط بدلا من ان ابقى في العمل الدبلوماسي . وبقيت نائبا لرئيس الجامعة واستاذا للتاريخ ، التاريخ العربي بصورة خاصة ، الى ربيع سنة ١٩٤٩ ، عندما دعتني الحكومة السورية مرة ثانية لاتسلم مهام الجامعة السورية كرئيس لها . فقضيت هناك ثلاث سنوات في هذا العمل ثم عدت الى موقعي في الجامعة نائبا للرئيس . وعندما توفي الرئيس في كانون الاول سنة ١٩٥٤ ، تسلمت مهام الجامعة رئيسا بالوكالة حتى اواخر سنة ١٩٥٧ ، ثلاث سنوات وعندها آثرت ان اترك الادارة واعود الى التدريس والبحث . فقبلت ادارة الجامعة ذلك . وعدت كما قلت الى هذه المهمة وكرمتني ادارةالجامعة ومجلس امنائها بأن عينوني استاذا ممتازا لهذه المادة . وكنت فيها ، في هذا المنصب ، الى ان تقاعدت في اواخر ايلول ١٩٧٦ .

● ولدت وقضيت الطفولة الاولى في مرحلة زوال الحكم التركي ، كانت الدراسة في الخارج في فترة كانت فيها الولايات المتحدة مقبلة على أزمة كبيرة ، وكنت دبلوماسيا ، اثناء الفترة التي سبقت المحنة العربية الاولى . لا شك كانت هذه المراحل حقل تجارب وتلمس. ما هي نتائجها الفكرية؟ أي دور لعبته كأرض لتجربة ذاتية ؟

ـ قلت انني عشت في عهد زوال العهد التركي ، والواقع اني لا اذكر من ذلك الا الشيء القليل ، لا اذكر الا صعوبات العيش في زمن الحرب الاولى ، مصاعب العيش ، ضيق العيش في الحرب الاولى ، انما اذكر بكثير من النشوة جو دمشق عقب الحرب العالمية الاولى ، وما كان ينتشر في هذا الجو من طموحات للاستقلال وللحرية وللنهضة العربية . ومن الذكريات التي لا تزال منطبعة في ذهني وقد كنت عند ذلك طالبا او تلميذا بالمدرسة الابتدائية : كلما كانت تحدث حادثة من الحوادث الوطنية او من المناسبات الوطنية كانوا يأخذوننا نحن ابناء المدارس لنشاهد هذه الاحداث ، فنذهب صفوفا واحيانا كثيرة نصطف في الشوارع الرئيسية ، ولعل الحادثة التي طبعت بفكري وذهني ومشاعري اكثر من غيرها هي عندما كنت طالبا او تلميذا ابتدائيا وقد اخذونا لنصطف ، وشاهدت الملك فيصل

يمر في عربته ليذهب الى حيث اعلن تتويجه ملكا على سورية . طبعا هذه وغيرها من الاحداث خصوصا جو دمشق ، جو دمشق بعد الحرب العالمية الاولى وقبل مجيء الفرنسيين وجو الانتداب كان جو نشوة أحس بها الجميع وتأثرنا نحن بها كأولاد . ثم عندما جئت للدراسة هنا في الجامعة الاميركية كانت الجامعة ايضا مركز تلاقي الطلاب العرب من مختلف البلاد العربية . وكان جوها ايضا زاخرا بالمشاعر الاستقلالية والتحررية ، استقلال سورية ، استقلال لبنان ، القضية الفلسطينية ... كل هذه كانت تحدث اثرها في الطلاب كأفراد او في الجمعيات التي كانوا ينتسبون اليها كجمعية «العروة الوثقى» مثلا، وبعدها كما قلت ذهبت الى الولايات المتحدة للدراسة ، فلم يكن لي نشاط خارج نشاط الدراسة لأني كنت مضطرا الى ان انهي دراستي وتخصصي في وقت محدود لاعود الى الجامعة . وكنت منصبا كل الانصباب ، منكبا كل الانكباب ، على دراسة تخصصي . عدت الى الجامعة ومارست التعليم .

● الانتقال الى العالم الاميركي ، مع الاخذ بعين الاعتبار متطلبات وضرورات الانكباب على الدراسة ، كان تجربة لقاء ، تجربة اصطدام بعالم جديد . وآثار هذه الصدمة كانت واضحة في العمل الاول أي الكتاب الاول ، « الوعي القومي » ، فهل في تجربة الصلة واللقاء مع العالم الاميركي جوانب لها طابع ذاتي اكثر ، ولا أقصد شخصيا ، جوانب تتصل بالتكوين الفكري ، بحياة الجامعة ، بالعلاقات مع المدرسين ، بالصلة بين الجامعة والخارج ؟ هل أدت الصلة الى اعادة النظر بعدد من الافكار التي كانت سائدة في الولايات المتحدة ؟

ــ في الافكار التي كانت سائدة في الولايات المتحدة في ذلك الوقت ، يعني بكل امانة ، اقول انه في ذلك الوقت لم يحدث مكوثي في الولايات المتحدة وعيشي في ذلك الوقت صدمة كبيرة. اولا لأني قمت بمطالعاتي المتابعة ، يعني تعرفت على الحياة الاميركية ، والفكر الاميركي . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، كما قلت كان هدفي قدر الامكان ، بالاضافة الى انكبابي على عملي الدراسي التخصصي ، هو ان استوعب قدر ما امكن، قدر ما استطيع من نواحي الفكر ونواحي الحياة . فعدت ، اظن ، بذخيرة لا بأس بها من الانطباعات والاحاسيس والافكار . انما هذه لم تكن تتفاعل بوجودي هناك في الولايات المتحدة . وانما بدا تفاعلها بعد ان عدت الى هنا وبدات امارس عملي . كنت انظر الى عملي على انه لا يقتصر فقط على التدريس في قاعات الدرس ، وانما يتناول الحياة الجامعية بنطاقها الواسع .

● لكنها تختلف عن الحياة الجامعية في فرنسا مثلا ...

ــ الحياة الجامعية في فرنسا يمكن ان تختلف عن الحياة الجامعية في الولايات المتحدة الاميركية . لكن اذا كنت تعتبرها من التراث الجامعي الاميركي ام لا ، يجوز . انما هذا ما وضعته لنفسي ، هذا ما تصورته انا انه مهمة الاستاذ . طبعا في الولايات المتحدة ،

التعليم الجامعي يختلف نوعا ما عما هو في اوروبا، بمعنى ان التدريس الاساسي الاعدادي في اوروبا ، كفرنسا او انكلترا ، او في المانيا يتم المرحلة الثانوية ، في الاعداد الثانوي ، ثم ينتقل الطالب الى الجامعة راسا للاختصاص .

والمفروض في الطالب عندئذ ، ان يستطيع هو ان يتعلم بذاته ، يستمع الى الاستاذ ، ولكن المفروض انه هو يبحث ، ويدرس ، ويختص، ويتابع . في الولايات المتحدة هناك مرحلة بين الثانوي الاوروبي والجامعي ، نسميها « كوليدج » . في مرحلة الكوليدج هذه ، الغاية هي التثقيف العام . فيها اختصاص ولكن فيها تثقيف عام . وعندما تلقيت دراستي في الجامعة الاميركية بالذات كان هذا هو الطابع الرئيسي لهذا النوع من التعليم الجامعي. فغذيت هذه الروح وتنقلت ومارست عملي مدرسا ، ومتصلا بالطلاب ، ومرشدا ومساعدا اياهم ، افرادا وجماعات . وكذلك اعتز بأني ، في خلال حياتي الجامعية ، تولدت بيني وبين اجيال من الطلاب روابط وصداقات اعتز بها وافتخر ، واعتبرها جزءا اساسيا من الحياة .

● **هناك الجانب المعروف من عملك وهو التأثير المتصل والعميق الذي مارسته في التوجيه الفكري ، في توليد اتجاهات فكرية عند عدد من الطلاب الذين ربما لم يكونوا طلابك مباشرة ، والذين لعبوا لاحقا دورا سياسيا ، وكان لهم اثر في رسم ملامح السياسة العربية في مطلع الخمسينات • حول أية افكار رئيسية دارت الصلة بين المدرس والطلاب ؟**

ـ كما قلت ان الحياة الجامعية كانت حياة شاملة اي انها لا تتوقف عند ساعات معينة ساعات تدريسية معينة ، وانما تتناول صلات مع الطلاب ، ايا كانوا ، كأفراد او كجماعات . اما من حيث الافراد فكانت هناك لقاءات استطيع ان اقول انها مستمرة ، في الدروس ، سواء ونحن نتمشى في ارض الجامعة ، او في احد المطاعم ، او في الدائرة. كنت اشجع الطلاب ، اذا كانت عندهم مشاكل خاصة او عامة ، ان يأتوا اليّ لنتباحث بها. ثم كانت للطلاب مؤسسات : اهم المؤسسات والجمعيات كانت « العروة الوثقى » . وكنت مستشارا لجمعية العروة الوثقى ، وايضا كنت مشرفا بصورة عامة على المجلة التي كانت تصدرها هذه الجمعية واسمها « العروة » .

فعن طريق هذا الاشراف، كانت هناك مناسبات للاتصال مع الطلاب، اكانوا افرادا او جماعات، طبعا اذا استثنينا المشاكل الشخصية التي كان يعانيها الطلاب ، والتي كان لي مجال ان اتباحث واياهم بها . وكانت هناك المسائل والمشكلات والقضايا العامة . ما هي هذه القضايا العامة : اولا ، قضية الاستقلال ، الاستقلال السوري ، استقلال لبنان، استقلال او اكتمال استقلال مصر . . هذه كلها تنعكس آثارها على الحياة الجامعية وكانوا يحسون بها . كذلك الصهيونية ، ومراحل قضية فلسطين وثورات فلسطين ومظاهرات واضرابات . . . كانت تلك الفترة ايضا فترة بحث وتعليل وتحليل في القومية . ما هي الفكرة القومية ؟ بدا الشباب يعي انه لا يكفي

ان نفكر بقضية الاستقلال ولا الاستعمار الخارجي . يجب ان تكون هناك فكرة شاملة من النظم . والفكرة الشاملة طبعا في ذلك الوقت كانت الفكرة القومية . في محيط الجامعة لم تظهر في ذلك الوقت ، على الاقل ، فكرة قومية لبنانية . هذه كان لها مجالاتها في اماكن اخرى . في بيروت او لبنان . انما كان هناك صراع بين الفكرة القومية السورية والفكرة القومية العربية . وهذا الصراع كان يؤدي الى جدال ومناقشات واحيانا الى اكثر من الجدال والنقاشات . كانت جمعية «العروة الوثقى» مجالا للفكر القومي العربي . فهذا الموضوع كان كثيرا ما يشغل الطلاب . وكان كثيرا ، كما قلت ، مدار بحث ومناقشة واعداد فكري . وكان سبيلا لتهيئة هؤلاء الطلاب لكي يمارسوا نشاطهم عندما خرجوا الى المحيط العام .

● تجربة العلاقة مع الطلاب وتجربة محاولة الجواب على اسئلة الطلاب في الجو الذي رسمته لم تقتصر على جو الجامعة، وانما كان جو بلدان عربية ، جو مثقفين من البلدان العربية . لأي مدى كان هذا الجو عاملا مؤثرا في تحديد وجهة تفكير ؟ طبعا ، وانا أطرح السؤال يبدو لي واضحا ان صياغة محور من المحاور التي احتلت باستمرار مكانا هاما في اعمالك اللاحقة كمسألة المؤسسة التربوية ، مثلا ، والاهتمام الكبير بدورها وبدور المعلم وصلة المعلم بالطالب تمت بانسجام مع الاتجاه القومي السوري ومع الافكار التي ارجح انها كانت سائدة في تلك الفترة ، والتي استرجعتها على الاقل في « الوعي القومي » . لكن أثر هذه الصياغة اندثر لاحقا . أشير الى كلام عن استمداد التربية من فلسفة قومية والى ذكر لامثلة مثل ماتزيني وباريتو وموسوليني في حالة الامة الايطالية ، وتيير وجول فرّي وشارل موراس في فرنسا ، وفيخته وشبنجلر وهتلر في المانيا . قصدت من هذا التذكير الاشارة الى العلاقة بين جو الجامعة وبين استمرار مرجع سياسي رئيسي تكشف عنه الامثلة التي ذكرت . كلهم ما عدا اثنين ، رجال دولة . ما الصلة ، ما المفصل بين تجربة التربية واهمية القائد السياسي اثناء الثلاثينات ، الصلة التي جاء كتاب « الوعي القومي » ليصوغها ؟ كيف كانت تعاش هذه الصلة ؟ كيف كان ينظر اليها ؟

ـ والله لا اعتقد انه كان للقائد السياسي دور خاص في التفكير . ما كنت اؤكد عليه ، انا بالدرجة الاولى هو ان القومية ليست قضية تحرر من استعمار خارجي فقط وانما هي تنمية قوى كبرى بمجموعها ، تنميتها داخليا ، واعطاء شيئين . اولا :

ـ مد الفكرة القومية لتكون عربية الاطار .

ـ اعطاء القومية محتوى داخليا اقتصاديا . وطبعا اظن ، وهذا كتبته سنة ١٩٣٨ ، ذكرت ان القومية ، اي صياغة هذه الفكرة ، الفكرة القومية ، يجب ان تكون مستمدة من فلسفة قومية ...

● سنعود الموضوع . انما قصدت الجانب التأريخي . نقلت هذه العناصر التي بدت لي معبرة عن منحى فكري نماذجه كثيرة . فعدا النموذج الذي مثلته انت شخصيا، كان هذا منحى اشخاص مثل انطون سعاده ولآخرين بعيدين كل البعد عن انطون سعاده ، كعباس محمود العقاد ، كل نظرية العبقريات قائمة على الفكرة التي كان نموذجها سياسيين من الطراز الذي ذكرت ، ويعود القارىء فيجد ، سنة ١٩٥٤ ، عند شخص مثل عبد الناصر في « فلسفة الثورة » هاجس القيادة والقائد . هل الامر علاقة بكل الخلفية السوسيولوجية لاعمال قسطنطين زريق ؟ اردت ان اشير الى جانب بدا لي ذا صلة بالجو . لا ادري اذ كنت تذكر ذاك الجو ؟

– انا اذكر الجو . واعتقد . اذا تعرضت للموضوع . وعندما استعيده في الذاكرة ، ان عرضي له في نظري هامشي . يعني هذا هو موقفي الاساسي .

● ان التوقيت اساسي في ما يعني مثل هذا الموضوع .

– طبعا كنت أهتم بقضية القيادة . كما كنت تقول . ولكن المهم في ذلك الوقت ، كما اذكر . هو صوغ فكرة قومية ، يعني صوغ فكرة قومية يستطيع الشبان . . يستطيع هذا العالم العربي ، الذي كان قد اخذ يتحرك ان يجعلها محورا لتفكيره .

● هل كان يمكن ان يتم هذا الصوغ خارج الظل الكثيف الذي مدته تجارب من نوع التجربة الالمانية ، والتجربة الايطالية قبلها ، والتجربة البرتغالية ، والتجربة الفرنسية ، في الفترة التي سبقت الجبهة الشعبية ...؟

– كان الامر ممكنا . لم يكن هذا عنصرا اساسيا .

● ليس صدفة ايراد هذه الاسماء ...

– اذا اخذت اطار الفترة فهمت كيف يمكن ان ترد . على ما اذكر الان ، ما كانت هذه الفكرة الاساسية . طبعا ، طبعا ، الواحد لا يقدر الا ان يعيش عصره . ويعيش جيله ، ويعيش التفاعلات التي كانت . لكن لو سألتني وقتذاك ، هل انت تؤمن مثلا بالقيادة الفردية او بالنهوض الاجتماعي العام ؟ كما اتصور كنت أقول لك : لا ، اؤمن بالنهضة الاجتماعية لحركة الناس بالشعب . طبعا كل شعب ينطا[illegible]. ولكن ليست القيادة هي المركز والمنطلق .

● اود ان اسأل سؤالا يتصل بالموضوع . هل كان المثقفون المذكورون : ما تريني . فخته ، موراس ، من الزاد الفكري ، من المادة الفكرية التي تساهم في اعداد مثقفين مثل قسطنطين زريق في تلك الفترة ؟ هل قرأت موراس ، او شبنجلر ؟

ـ قراتهم وقرات غيرهم ولكن لا اعتقد ... قراتهم وقرات غيرهم . ولكنني لا أقف عندهم ، ولا اعتبرهم عناصر اساسية . ادركت ما أعنيه ؟ لا اعتبرهم عناصر اساسية.

● ننتقل الى التجربة الدبلوماسية . ما قدمته تجربة من هذا النوع ، او ممارسة من هذا النوع ؟ كيف تلقيتها ؟

ـ من وجهة خاصة . اي بصورة خاصة مارست العمل السياسي او الدبلوماسي في وقت لم تكن سورية قد استكملت استقلالها ، والجيوش الاجنبية الفرنسية لم تكن قد جلت عن البلاد، بين شباط، فبراير ١٩٤٥ ونيسان، ابريل ١٩٤٦ . عندما جلت الجيوش الاجنبية عن سورية كانت فترة نضال . وبقدر ما كانت تسمح الظروف شاركت في هذا العمل باتصالات دبلوماسية في الولايات المتحدة . يضاف الى ذلك ان هذه الفترة كانت ايضا فترة محورية فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية. عندما احالت بريطانية هذه القضية على الامم المتحدة ثم اخذت الامم المتحدة تدرس هذه القضية ، اولا في اجتماع استثنائي في نيسان ابريل سنة ١٩٤٦ ، ثم في نيسان ، ابريل سنة ١٩٤٧ ، ثم في الاجتماع الذي حدد بين تشرين الاول ، اوكتوبر وتشرين الثاني . نوفمبر سنة ١٩٤٧ . هاتان المشكلتان شغلتاني طبعا . شغلتا كل دبلوماسي عربي في ذلك الوقت . كان عملي يدور عليهما . كان يتطلب العمل اتصالا بالجمهور الاميركي وتعريف الجمهور الاميركي على هذه الامور . علاوة على الاتصال الدبلوماسي بالحكومة الاميركية . ومن وجهتي الخاصة . اغنتني هذه الخبرة . لان الاستاذ الذي يظل ضمن الجو الجامعي يمكن انْ لا يرى الامور الا من ناحية نظرية .

● والمؤرخ ؟

ـ والمؤرخ . ولكن عندما يدعى الى عمل، الى وظيفة عملية او تنفيذية يرى الامور في منظور آخر . هذه الرؤية الجديدة تغني الخبرة والنظرية .

● ثمة مسألة قد تكون أقرب من المسائل التي كتبت فيها لاحقا ، مثل صناعة التاريخ. ما صلة التجربة الدبلوماسية بصناعة التاريخ والتأريخ ؟ هل مدت التجربة الدبلوماسية هذه الصناعة بعناصر، او شكلت نوعا من مرجع لاحق ؟

ـ طبعا في المرحلتين اللتين عملت فيهما. اما في الحقل الدبلوماسي او في الحقل الاداري ، جعلت اقدر جدوى العمل المنتج الذي فيه شيء من التبعة . فالاستاذ او المدرس عندما يدرس عادة يبتغي ان يفتح ذهن الطلاب ، وان يجعلهم يرون المشكلات من نواحيها المختلفة . لا يفرض ، وانما يقول هذه المشكلة لها الناحية الفلانية والناحية الفلانية ونواح اخرى ، ايجابية ، سلبية . اما عندما يمارس العمل فالانسان مضطر ان يتخذ قرارات . فلذلك لا يستطيع كثيرا ان يتوقف بين هذه الناحية او تلك ، لا بد ان يجزم . وهذا ، اعتقد ، شيء يفيد المفكر . فهو يرى الامور على طبيعتها ويتفاعل مع الحياة . فهناك ، اعتقد، نوع من المد والجزر بين التجرد

من ناحية والالتزام العملي من ناحية اخرى . فلا التجرد النظري من ناحيته يأتي بأفضل الثمار ، ولا الانغماس العملي يأتي بأجودها ، انما هو التفاعل بين الموقفين ، ما يجب ان يكون مستمرا في حياة المفكر التي تجعل منه مفكرا وعالما بالوقت نفسه . هذا الشيء هو ما أظن اختبرته في حياتي العملية ، وما اظن انه عامل اساسي حاولت الاحتفاظ به في خلال حياتي .

● هل لديك انطباع ان هناك سوء فهم طال اتاجك ؟

ـ لا ادري اذا كان هناك سوء تفاهم في القضايا التي طرحتها . طبعا لا يطرح احد موضوعات الا وتلقى رضا عند بعض الناس ، وتلقى تحفظا من آخرين . وصراحة ليس من كلمة ما بعدها كلمة . كلنا طلاب ، في الحقيقة وطلاب معرفة ، ولا ازال اعتبر نفسي انني لا ازال طالبا متتبعا ، حتى بعد كل تلك السنين . انما انطلق من المنطلق التالي وهو ان المفكر عليه تبعات نحو القضايا التي تحياها امته او يحياها مجتمعه . ففي مرحلة شبابي وتبعا للظروف التي شرحتها ، ظروف المجتمع السوري والمجتمع اللبناني والمجتمع العربي بصورة عامة ، كانت القضية الاولى هي قضية تحرر هذه الشعوب من نير الاستعمار ومكافحة الصهيونية . وكان هذا التحرر ، هذه المسحة التحررية، يتخذ الوانا مختلفة . وكنت منذ نشأتي ، وجدت ان الاتجاه الصحيح ، الاتجاه الذي يجب ان نسعى اليه هو الاتجاه القومي العربي . وقد حاولت بقدر الامكان ان اوضح لنفسي ، وبالتالي لغيري ، مفاهيم القومية . وجدت ، اثر هذا التتبع ان طرح هذه المفاهيم ليس مسعى سياسيا فحسب ، وانما هو مسعى حضاري بكل معنى الكلمة . وبالتالي يجب ان نفهم ما هو الوضع الحضاري العربي، وبالتالي يجب ان نفهم ما هي العوامل الداخلية التي تعتمل فيه ، وما هي الرواسب التاريخية الموجودة . وهذا ما جرني الى البحث في الشؤون الحضارية . ولما كنت مؤرخا ، او طالب تاريخ ، سمه ما شئت ، فقد وجدت ان مهمتي لا تنتهي بتحقيق النصوص التاريخية وبوضع دراسات تاريخية عامة وانما يجب ان افهم ما يلي : ما هو موقفنا من تاريخنا ؟ وهذا ما قادني ان ادرس موقف اي مجتمع من تاريخه وما هو اثر هذا الموقف . فاذن ، وهذا ايضا جرني الى البحث في الكتب التالية ، لاحظت ان التكون الحضاري انما هو تفاعل بين ارث جاء من تاريخ المجتمع وبين تطلعات مستقبلية . اذن يجب ان اوضح هذه الصورة فيما يتعلق بتكوننا العربي ماضيا ومستقبلا . القومية حضارة ، ماض ، مستقبل . هذه هي الخيوط التي تربط . . .

● اذا دققنا في بداية حياتك الفكرية يسترعي الانتباه اكثر من طرح مشكلة التاريخ ، والتي كانت مشكلة عامة . وكان المثقفون العرب قد طرحوها منذ الفترة التي عاش فيها اشخاص مثل الطهطاوي ، وكتاب رحلته الى باريس الذي كتبه حوالي سنة ١٨٣٠ ، او ١٨٣١ ، ما يلفت الانتباه ليس مشكلة التاريخ العربي ، وانما نوع من نزوع مبكر لتعميم أوسع لمعالجة المشكلة ، ليس فقط من زاوية معطياتها المباشرة ومعطياتها الآنية ، وانما محاولة لاطلالة أعم،

ـ لا اعرف اذا كانت جماعة المتقدمين الذين ذكرتهم قـد وعـوا المشكلة كمشكلة . رفاعة الطهطاوي اقبل على حضارة الغرب ووجد فيها شيئا جميلا جدا . واقبل ايضا على التراث الاسلامي ووجد فيه اشياء كثيرة . واقبل على تاريخ مصر بالذات. صحيح . اما كيف ان هذا التفاعل بين ثلاثة تيارات يخلق مشكلة ؟ لا أظن انه عالجها كمشكلة .

● هناك وعي للمشكلة وانمـا ليس كمشكلة عامة. هناك وعي لعناصرها المباشرة. لعناصرها الآنية ...

ـ انت بحثت فـي المشكلة التاريخية وكتبت عنها . ما هو جوهر المشكلة التاريخية؟ جوهر المشكلة التاريخية هو هل يحكمنا التاريخ او هل نتحكم بالتاريخ . هذا رايي . هـل يحكمنا التاريخ ونحن ننفعل ، اقول طبعـا نظرتي . ان المشكلة التاريخية هي اساسا هل الشعب هذا سيكـــون محكوما بالتاريخ او سيتحكم بالتاريخ ؟ اذا كان محكوما بالتاريخ فهذا معناه انه يتقبل التاريخ كما هو ، يخضع لميل التاريخ . اما الشعب المتيقظ الواعي فهو يتحكم بالتاريخ ، اولا ، يتحكم بـه ناقدا . ما كل شيء ، مـا كـل الروايات التـي جاءتنا صحيحة، علينا ان نخضعها لدور النقد العلمي وان نفرض عقلانيتنا عليها ، ننقدها كما حاول ان يفعل ابن خلدون . ثانيا : نتحكم من ناحية ثانية ، نتحكم بها لاننا نأخذ منها ما يوافق تطلعاتنا للمستقبل ونترك ما لا يوافق . اذن المنطلق الاساسي بين تفاعل الشعب والفـرد الواعي وبين التفاعل غيـر الواعـي ان الفرد الواعي منطلقه الاساسي ليس الماضي منطلقه الاساسي المستقبل . انا اصنع حياة ، انـا صانع حياة ، لكنني مقتنع تمام الاقتناع انني لا اقدر ان اصنع حياة من العدم ، بقدر مـا اصنع حياة اعود الى هذا التاريخ فأنقده اولا عمليا لأرى الصحيح من غير الصحيح ، ثم آخذ من الصحيح مـــا يوافق تطلعاتي المستقبلية واترك ما لا يوافقني . هذه المشكلة التي عانيتها لا اعتقـد ان المتقدمين الذيـن ذكرتهم كانوا يعانونها ، عانوا مشكلة من نوع آخر .

● لا اريد ان احسم بتمييز : حاولت ان أحدد ...

ـ يعني انا لا ادعي انني جئت بجديد . بالقنبلة الذرية . . .

● المشكلة في اواخر الثلاثينات هــي ان المثقف العربي المشرقي ، في رأيي ، كان يتلقى تراثا كاملا من طرح المسألة ، ومــن معاناة ما يبدو لي انه كان نوعا مـن بداية انعطاف فكري ، هو الانتقال من المشكلة في طرحها المادي ، طرحها العيني المباشر ، الــى صياغتها كمشكلة عامة . منذ ان بدأ تاريخ عربي معاصر، ربما مع محمد علي تقريبا، وفي صلب الفكر العربي مشكلة التاريخ وانمــا عندما كانت تصاغ ، كانت دائما انطلاقا من عناصرها المحدودة ...

ـ وليس كمشكلة . . .

● ليس كمشكلة عامة ، او كما نقول اليوم ليس كمشكلة نظرية •

– ليس كمشكلة عامة ... معك حق . ليس كمشكلة ايضا متأثرة بما فكر به المفكرون الآخرون الغربيون . هذه هي مشكلة التاريخ .

● كيف ترى أسس هذا الصوغ الجديد ؟ عناصره ؟ ما قلته يرد الموضوع بشكل رئيسي الى نوع من الحوار مع صياغة اوروبية •

– انا لا اقول صفتها صياغة اوروبية . انا قلت انني في صياغتي للمشكلة التاريخية تأثرت بمطالعاتي ودراساتي العديدة حول الموضوع الفكرة التاريخية والتركيب التاريخي .

● هل ان التنظير لم يرتبط بعوامل تاريخية محلية ؟ لقد كتبت الكتاب الاول عشية الحرب الثانية في فترة •••

– لم تستيقظ اهتماماتي بالتاريخ في ذلك الوقت . « الوعي القومي » انتاج مبكر . كان عتبة . ولكن في ذلك الوقت كنت اعالج، كما قلت لك ، المسائل القومية . اما المشكلة التاريخية فما تصديت لها فعلا الا في اواخر الاربعينات واوائل الخمسينات ، وليس تحت تأثير الحرب العالمية انما تحت تأثير مهنتي كمؤرخ ، كمؤرخ ومفكر يعني ، بكلمة اخرى ، انا ارى اولا ان كل شخص من الاشخاص ، كل مثقف ، يجب ان يكون واعيا كل الوعي ما هو جوهر مهمته . انا عندما انتسبت الى فريق المؤرخين اصبح مفروضا علي ان افهم ما هو جوهر مهمتي ، وفي فهمي لجوهر مهمتي تبين لي ان هناك ثلاث درجات ، ثلاث مستويات لمعنى التاريخ :

١ – التاريخ الذي ندعوه صناعة ، الذي يقوم على تحقيق الاصول واستنتاج الحوادث المفردة .

٢ – التاريخ الذي هو علم بمعنى ان تثبت حقيقة ما حدث في فترة ما من الزمن ، اريد ان ادرس مثلا تاريخ سورية بين (١٤١٥ – ١٥١٥) ، غايتي ان اعرف تماما ما حدث في تلك الفترة . اذن هناك تاريخ العلم ثم تاريخ التفكير . طيب ! حدث كذا من سنة ١٤١٥ الى .. ولكن ما معنى هذا الذي حدث لي ولمجتمعي ؟ هذه تساؤلات تلح علي دائما بحكم مهنتي ، وبحكم تفاعلي مع طلابي ، وبفعل تفاعلي مع مجتمعي . اكثر المحاضرات التي كنت اعدها والقيها ، كنت اريد ان اخرج بواسطتها طلابا لا يكونون فقط صناع تاريخ وانما يكونون مفكرين تاريخيين . لذلك كنت اسأل ما هي مشاكل الحرية ؟ وما هي مشاكل التقدم ؟ وهي اسئلة في كل دراساتي . حتى لو لم تقع الحرب الثانية ، وحتى لو لم تحدث الاضطرابات التي كانت تحدث فأنا بحكم وعيي لمسؤوليتي كمؤرخ واستاذ تاريخ ، اظن انني مشيت وتبعت هذا الخط . انما الظروف التي كانت او كنا نحياها كانت ازمات متتابعة . وهذه الازمات المتتابعة تفرض نوعا من المسؤولية يختلف عن المسؤولية التي تكون في ايام الدعة والاستقرار وفي ايام الهدوء . في ايام الهدوء والاستقرار يقدر الواحد ان يعمل ان يكون عنده شيء من الترقب ، اقدر اقول : والله لماذا افكر تاريخيا ، انا اذا نشرت عشرين

نصا ، وقدمتها للعالم أقدم خدمة كبيرة . وبعض الناس ينتقدونني لأنني لم اقدم لعلم التاريخ ما كان يجب ان اقدمه ، من هذه الناحية ، كمؤرخ . انما اقول انه بفعل الازمات المختلفة التي كانت تتعاقب على هذه البلاد وعلى هذا المجتمع ، كانت تفرض علي ما ، ربما ، لا تفرضه على غيري . تفرض علي دائما ان أحس ما القيمة التاريخية لان افكر تاريخيا ، وان أجرب أن أثير في طلابي ومن حولي التفكير التاريخي الذي يلخص بكلمة واحدة : ما معنى هذا الحدث التاريخي ؟ ما معنى هذه النظرة التاريخية كشعب وكأمة ونحن نتطلع للمستقبل ؟

● نعود لبدء عملك الكتابي .. لا اريد ان نركز الحديث كله على البدء ، فما هو الا مرحلة اولى . اريد ان امسك الخيط قبل ان تتقدم . في مطلع العمل الفكري بدا نوع من التمايز بالنسبة للفكر القومي الذي كان آخذا بالتكون ، أفكر بشكل رئيسي بالمحور الذي يربط ما بين زكي الأرسوزي وميشال عفلق وتراث الاثنين المشترك . سلكت هذه الوجهة من الفكر القومي مسلكا يمكن ان يدعى المسلك القومي الخالص ، قرأت في عودة التاريخ او استلهام التاريخ ركيزة الاطلالة على المستقبل . في بداية عملك شددت على جانبين متلازمين، الجانب القومي، الذي استعاد المشكلات القومية الخالصة ، وربطت بين الوجهة القومية مع ما سمي لاحقا بالحداثة . في أي سياق ، انطلاقا من أي مشاكل وجوابا على أي اسئلة بدا الاحياء القومي غير كاف لمجابهة عالم معاصر ؟

ـ الربط هو تحرر من الاجنبي ، هذا بدء كل شيء . عند البحث في قضية التحرر من الاجنبي او عند دراستها ومعاناتها، وجدت ان التحرر لا يكفي واذا لم يكن هذا الجهد التحرري مربوطا بنظرية قومية عامة ، بقضايا نظرية قومية تستند الى التراث من ناحية وتتناول حياة الامة من كل نواحيها ، فهو يبقى جهدا ناقصا . الموقف التالي هو ان القومية . اي موقف قومي ، هو نتيجة وضع حضاري معين ، ولولا هذا الوضع الحضاري المعين لا نستطيع ان نفهم القومية ولا نستطيع ان نكوّن قومية صحيحة . فاذن ، هذا الوضع الحضاري يتطلب معرفة انفسنا بالنسبة لتراثنا ويتطلب معرفة انفسنا بالنسبة للعالم المعاصر .

● للعالم المعاصر وجه محدد ، تاريخي، ماثل ، هو اوروبا ؟

ـ او العالم الحديث ...

● العالم الاوروبي ؟

ـ هو العالم الاوروبي والاميركي .

● الاوروبي الغربي

ـ ليس الاوروبي الغربي فقط ، والاوروبي الشرقي ايضا .

● اوروبا بمعنى الـ «Occident»

ـ الـ «Occident» بما فيه ايضا روسيا .

● قسم منها . لان التاريخ الروسي تاريخ مقسوم ... ليس روسيا التاريخية ولكن روسيا المعاصرة ... النقاش حول الستالينية يشير احيانا الى العنصر الشرقي في الستالينية ...

ــ لم اقتنع بالامر . انا مقتنع ان الثورة الروسية بأساسها هي طفرة تحديثية . والطفرة التحديثية التي قضى الغرب (٣٠٠) سنة فيها . قال الروس تحت الحكم الشيوعي نريد ان ننجزها بعشرين سنة . وهذا يفسر لماذا يختلف نظامهم عن نظام الغرب . هذا بتبسيط طبعا . ويمكن ان نعود لمناقشته . ولكن لنرجع لموضوعنا . ما هو الخيط الذي يربط ، كما اتصور واستعيد ماضي وذكرياتي . المراحل الثلاثة من التحرر من الاجنبي الى الوضع الحضاري ؟ انك لواجد الامر التالي الذي ظهر بصورة واضحة في كتابي الثاني « معنى النكبة » ، وهو ما عنيت به ان صراعنا مع الصهيونية ليس صراعا بين جنس وجنس او بين دين ودين ، لكن بين حضارة وحضارة . افهمت ما اقصد ؟

● اصطدام المشروع النهضوي الذي كان يحمله الكتاب الاول بحدث تاريخي بأهمية وضخامة الهزيمة العربية في فلسطين. كان الاصطدام بالهزيمة العربية نوعا من مختبر تاريخي عيني لفكر وجهته الرئيسية التساؤل حول صناعة التاريخ او حول شروط النهضات . وشروط النهضة العربية بصورة خاصة . كيف واجه المثقفون العرب مشكلة تاريخهم المعاصر من الزاوية التي ينتظمها أفق السؤال حول النهضة ؟ هذا المختبر التاريخي كيف تم استخدامه ؟

ــ والله . . حين كنت اكتب . حين كتبت عن النكبة لم اكن افكر لا بالنهضة ولا بالتاريخ ولا بالمختبر التاريخي ، بسنة ١٩٤٨ . لما حدث ما حدث ، ومع اني كنت امارس عملي في الجامعة . اخذت عطلة اسبوعين قضيتها في الجبل . قلت لا بد ان اقول شيئا . انا . كمفكر . ما كان يجوز ان تمضي هذه الحادثة. هذه الصاعقة . هذه الكارثة . بدون ان اقول كلمتي . انا . لأني احس بمسؤولية . خصوصا انني بتفكيري وباتصالي مع طلابي لم تكن هذه الامور غريبة عني . جلست وتفحصت السبب . السبب الاساسي هو سبب حضاري . وذكرت هنا معنى النكبة ، اذا كنت تذكر . قلت ما يجب ان يحدث ، ان تقوم به الامة العربية في المدى القريب وفي المدى البعيد ، في المدى القريب . . .

● تجنيد قوى الانظمة بكاملها . لان الحرب اصبحت حربا شاملة ، صيغة توحيد بين الدول العربية ... وفي المدى البعيد ان نحول هذا المجتمع من مجتمع متخلف الى مجتمع تقدمي . سيتوقف الانتباه عند عدد من النقاط . لا استطيع ان اقدر مدى اختلافها عن المنظور الذي كان سائدا في الفترة التي كتبت فيها ، وانا عندما استرجع ردود الفعل على هزيمة ١٩٦٧ ، في كتابات الصحفيين . مثل كتابات هيكل ، يدهشني استباقها في ما كتبته عام ١٩٤٨ ، مثلا الكلام على نوع

الحرب والانتقال من « حرب الدنتيل » الى حروب الشعوب • تذكر ولا شك ان هيكل او غير هيكل جعل من هذا الكلام اكتشافا • بينما قبل (٢١) سنة كان هناك ادراك لانتقال الحرب من طور الى طور آخر • النقطة الثانية هي اشراك القوى الشعبية في النضال والتأكيد على ان العلة في القادة الذين لم يدربوا هذا الشعب• هذا المنحى الذي يمكن تسميته شعبيا ، نسبة للشعب، شعبيا اجتماعيا حضاريا ، اذا استرجعت الكلمة التي استخدمتها ، كيف تقبله المعاصرون ؟ وما كان موضعه من محاولة فهم الحدث في الثقافة السائدة في تلك الفترة ؟

ـ لا استطيع ان اقيس كيف تلقي . كانت الاذهان مستعدة . ان الكتاب ما كاد يطبع حتى نفذ وبعد شهر او شهرين اعيد طبعه ثانية ولا يزال الى الآن يطبع . هناك كثير من الناس لم يقرأوا لي شيئا يعرفونه . لا اذكر اذا كان قد تناوله احد بالنقد . لم يقل احد : لا والله هذه نظرية غير صحيحة ! المنطق غير صحيح ! مما يدل ، في نظري ، على انه سواء كنت اخطأت او كنت مصيبا ، لاقى هذا الكتاب ، على صغر حجمه ، شيئا موجودا في لا وعي الناس او لدى عدد غير قليل. وادركت قضية الحرب الشاملة لانني كنت اتتبع تاريخ الشعوب وتاريخ الحروب ، من كان يقدر ان يقول انه عايش الحرب العالمية الثانية ولم يدرك مفهوم الحرب الشاملة ؟

● والقوى الشعبية ...

ـ كثيرون صاروا يقولون : الحق على الفلسطينيين ... لماذا تركوا ؟.. طيب ! ماذا عملتم لهم ؟ وكيف ساعدتموهم ؟ كيف جهزتموهم ؟

● المفارقة هي ان الكتاب ظهر سنه ١٩٤٨ ، وحمل حسا ديمقراطيا وشعبيا في الفترة التي كانت بداية انعطاف التاريخ المحلي نحو اتجاهات يمكن وصفها بكل الصفات الا بالديمقراطية • بدأت الانقلابات العسكرية• من ناحية ، كتاب هذه وجهته يتلقى بترحيب، ومن ناحية ثانية التاريخ ينعطف باتجاه آخر مناقض ، بالنسبة للمثقفين ، في الامر مشكلة •

ـ طبعا هناك مشكلة . ومشكلة كبيرة وحقيقية . انما ما هي وظيفة المفكر اذا لم تكن ان يحس بالمشاكل ويعبر عنها ؟

● اتخذ التحليل وجهة بينما سلكت الوجهة التاريخية الفعلية طريقا معاكسا • ما الذي طرحته هذه المفارقة من مهام على الصعيد الفكري ؟ أتصور مثلا ان مثقفا كتب « معنى النكبة » ثم سارت الاحداث في المجرى الذي سارت فيه لكان وضع الكتابة جانبا ، كما عمل غيرك مثلا ، او اختار طريق النضال السياسي المباشر • كيف عشت هذه المفارقة وكيف قررت ان تستمر تكتب ؟

ـ في نظري ، اذا اردت جوابا ، وهذا هو شعوري بهذه المفارقة ، ومعنى الامر الى

الاهتمام بما اسميته بالمدى البعيد ، يعني اثارة الوعي الحضاري ، اثارة المشاكل الحضارية .

● هل معنى ذلك ان سبل العمل المباشر بدت مغلقة ؟

ـ لا ، لم تكن مغلقة . لكن سبل العمل المباشر تتوقف على ميول كل شخص ، وطبيعة كل شخص ، ومزاج كل شخص . انا طبيعتي وتكويني ، ليسا للعمل المباشر .

● هل هذا نوع من المراهنة على زمن آخر ؟ ولكن بدون حساب زمني أو حساب تاريخي ؟

ـ لا . هناك حساب تاريخي ، وحساب زمني. هناك حساب تاريخي وحساب شخصي معا . اولا ، هناك تكويني الخاص . انا لست رجل سياسة ، ولا رجل احزاب ، مع انني عانيت السياسة وعانيت الاحزاب ودخلت في احزاب . ليس هذا ميلي . كان لدي شعور بأن مجمل المثقفين والذين يعالجون القضايا الهامة كانوا ينصرفون ، سواء عمليا او فكريا، للاشياء المباشرة ، للاشياء الملحة وقل بينهم من كان ينبه ان هذه الاشياء الملحة المباشرة ان هي الا ظواهر لاشياء أعمق ، وعليك ان تدل على الاشياء الاعمق . لذلك عندما نقول : اننا نعمل للتحرير ، هذا جميل ! لكن عليك ان تفهم انت اولا، هذا الاقطاع مظهر لأي حضارة؟ وكيف تكافحه ؟

● بدا في « معنى النكبة » ان هناك اتجاهين : الاول يلخص مسألة حضارية كما أسميتها ، والثاني يبدو مبررا لعدم الخوض المباشر في العمل التاريخي الذي هو نوع من المراهنة على الافراد وعلى القيادات • اورد سطرين من الكتاب يكملان ما أثرته سابقا ، ذكرت : « نقطة الانطلاق في التبديل والانقلاب انما هي في القادة والصنعة ، الفئة المختارة المبدعة » وتتابع ما تلخيصه : الافراد الذين يبنون الدول ويخلقون الامم وتمتد جذورهم عميقة الى حياة الشعب كما هي • يبدو هكذا موقف ، عندما يقاس بالحدث انك تحلم بتجنب التاريخ ، التاريخ المباشر •

ـ لا تستطيع ان تأخذ فكرة على حدة..

● هناك اتجاهان ••••

ـ ... وتفصلها عن النطاق الذي يجري البحث فيه . لا اعتقد انني لم اكن اريد ان أعمل ...

● ألم تنتظروا نوعا من عبد الناصر•••

ـ لم يكن هناك انتظار .

● بعد ١٩٤٨ ألم يكن ثمة احباط عندك وعند آخرين ؟

ـ اليأس ....

● القدرية ؟ ابدا ؟

ـ ابدا ، القدرية ما لازمت تفكيري لانه

من خلال تفكيري كله ، اقول ان الامم التي تصنع القيادات ، اننا نحن الذين نصنع قدرنا . نحن نعمل قدرنا وان التاريخ هو الذي يحكم علينا بقدر ما نستحق ، بقدر ما نعمل . ليست القضية قضية موت او يأس . بالعكس ، بل استمرار الجهد للتغيير ، للتبديل ، للصنع . طبعا ، يجب ان يبرز عندنا قائد ومجموعة ، لكن لا يعني هذا ان ننتظر حتى يبرز القائد . انا كمفكر اعتبر نفسي مناضلا في جبهة التفكير ، انني بمجرد ما اخترت ان اكون مربيا واستاذا فانني راهنت ، وليست المراهنة على المستقبل بمعنى : دع هذه القوى الطبيعية والقوى الانسانية تخلق المستقبل . لا ، راهنت على المستقبل . يعني : ثمة اناس مستعدون ومجهزون يعملون للحاضر وللمستقبل ، ما دام ان جذور هذه المشاكل تتطلب حلا اساسيا ، الحل المعطي ، الحل المؤقت والحل الاساسي . انا لا اتعرف على القدرية ، وانا ضدها الى النهاية .

● أليس هناك نوع من الاحساس بشيء غير معقول ، بشيء غير محاط به ؟

ـ قلت ان قضية القادة ليست قضية قادة سياسيين فحسب ، في كل مجال من مجالات العمل مجال للقيادة . المعلم يستطيع ان يكون قائدا .

● بعد ١٩٤٨ ، طوال ١١ سنة اصدرت مقالات وألقيت محاضرات ، لكن لم يصدر كتاب متكامل .

ـ من ٤٨ الى اي تاريخ ؟

● لسنة ١٩٥٩ ، عند صدور « نحن والتاريخ » . عام ١٩٥٧ أصدرت مجموعة مقالات جمعتها في كتاب بعنوان « أي غد ؟ » وجمعت في « هذا العصر المتفجر » عام ٦٣ مقالات اخرى . من ١٩٤٨ الى ١٩٥٩ ، أعددت فعلا كتابك « نحن والتاريخ » الذي انضج مسائل في فترة حاسمة ....

ـ هذه السنوات هي تلك التي توليت فيها اعمالا ادارية في رئاسة الجامعة او في رئاستها بالوكالة ، او في رئاسة الجامعة السورية . فما كان يسمح لي ان انصب على وضع كتاب .

● المهم ان الكتاب جاء بعد مرحلة طرحت فيها مسألة التاريخ بعموميتها او بشمولها ، في فترة بدا فيها ان العرب دخلوا صناعة التاريخ . ما صلة المفكر الذي كان أمضى حوالي عشرين سنة في العمل الثقافي بظاهرة مثل عبد الناصر وما رافقه ؟ هل كانت الصلة واضحة ؟

ـ انا عندي ما كانت واضحة .

● ما مكان عبد الناصر بالنسبة للمفكر؟

ـ عبد الناصر كان عندي الزوبعة . ان القدرة التي اعطيها للتأثير في المجتمع العربي، كانت تؤهله لان يصنع العجائب . لو كان القائد والشعب مؤهلين لمثل هذا الدور في تلك المرحلة التي تكالبت فيها جميع القوى المضادة. انا كنت افكر في القضايا ، في

القضية بمجملها . في عبد الناصر وفي الانقلابات السورية . والاحداث في العراق . وما حدث في الاردن . . . كلها كانت تعني صناعة التاريخ او صنع التاريخ بالاحرى . وهو عمل عام غير مرتبط بشخص معين او ببطل معين .

● لكن لا شك انه قدم مادة متميزة . . .

ـ من ؟

● عبد الناصر . . . .

ـ قدم مادة . ولكن يا اخي مثلما عبد الناصر كان يصنع التاريخ انت كنت تصنع التاريخ وانا اصنع التاريخ باقدار معينة . لكن المهم ان نوقظ لدى الشعب، لدى الناس كلهم ، فكرة انهم هم احياء .

● أليس هذا ما بدا انه دخل في اذهان الناس ، وفي سلوكهم . مع ظاهرة مثل عبد الناصر ؟ ألم يكن ذلك بداية تحقيق المشروع ؟

ـ لا شك ان عبد الناصر نبه الشعوب الى انهم اسياد مصيرهم . لكن لا يعني ذلك ان هذا المثل هو الذي اوحى لي بالكتاب . ولا اقدر ان أقول ان هذا الكتاب كتب في ضوء الوعي بهذا الانعطاف التاريخي .

● يستوقف الانتباه في « نحن والتاريخ » نوع من بداية ردة فعل على الوجهة القومية ، نوع من التنبيه للمبالغة القومية . كتبت تحذر من النظرة القومية للتاريخ لانها تسهو عن الروابط مع الشعوب الاخرى وعن وحدة التاريخ البشري المتشابكة وعن المؤثرات الخارجية . مثل هذا الكلام عام ١٩٥٩ كان مزعجا . . . .

ـ يجب ان يحاسبني ضميري على مهنتي ومسؤوليتي .

● ألم يكن التحذير ردة فعل على المبالغة القومية ؟

ـ تقدر ان تسميها ردة فعل . وتقدر ان تسميها توضيحا وتوسيعا . يا اخي ! هذه النظرة الضيقة للقومية يجب ان تحاسب نفسها ايضا .

● هل بدت لك مرتبطة لحد ما بالاتجاه الناصري ؟

ـ لم اكن اربط بينها وبين الاتجاه الناصري .

● لم تكن الناصرية هي مادة . . . ؟

ـ لا ، هذه النظرة كان يمارسها الحزب السوري القومي كما كان يمارسها التيار الناصري او البعثي .

● لكن ما كتبت لم يكتب عام ١٩٤٨ ، بل كتب عام ١٩٥٩ . . .

ـ عام ١٩٥٩ او غيره . . . .

● عام ٥٩ ، هناك . . . .

ـ هل عام ١٩٥٩ لأن عبد الناصر . . . .

● لا اقصد عبد الناصر ، أقصد الصلة مع تاريخ راهن وفاعل •

ـ ما تكتبه بسنة ٥٩ هو وليد تفكيرك .

● من ١٩٥٢ ...

ـ من أي سنة كان انا كائن متطور . وما اكتبه في مرحلة لا يعني انه خلق لهذه المرحلة بالذات . انه نتيجة تطور في تفكيري . مع مرور الزمن لا بد انني شعرت بنظرة قومية ضيقة مثلا . كان ثمة حزب في العراق اسمه الحزب القومي العربي . وكان هناك نادي المثنى . وكانوا يقولون عرب عرب عرب عرب . طيب ! انا عربي وفهمنا ! لكن عندما تأتي لتفكر . وحين تكتب مثلا : يا ناس انتبهوا ان القضية محدودة ....

● سمة ثانية في نفس العمل . يحدوني قصد سيء لأن اربطها بالتاريخ الراهن يومها • تقول في نحن والتاريخ : انه يمكن تصنيف الناس لفئات : فئة الاحساسات البدائية وهذه الفئة لا هم لها بحضارة المجتمعات وابداع اشكال متطورة . وفئة ثانية تشعر بما يعترض طريقها من صعاب ولا تؤمن بأن لها يدا بالتغلب عليها وهي غير مبدعة ، الفئة الثالثة مؤلفة من أفراد وجماعات غامرت واختارت ومضت في اختيارها • يمكن ان يكون هذا التصنيف تذكرا لخرافة المعادن الثلاثة في « جمهورية » افلاطون ، لكنه يبدو لي نقدا للحركات الجماهيرية التي رافقت الناصرية••

ـ ان التأثيرات كلها تنتقل الى الذهن . اما اذا كانت هذه الفكرة ترجع لافلاطون ام لغيره فهي من اهتماماتي ...

● الفكرة تتضمن نفيا لأثر قسم كبير من الناس في التاريخ ، وذلك في فترة بدا ان الجماهير العربية تطلع على المسرح • ان التنبيه لجمود قسم ضخم من الجماهير تم في فترة. كانت هناك فكرة سائدة واساسية تقول بالعمل والتحرك الشعبيين •

ـ لا اعرف اذا كنت قد قلتها عن تلك الفترة . كنت اقولها عن التاريخ عموما .

● لكن سوء الظن يربط بين كلام قسطنطين زريق عن التاريخ عموما وبين احداث ووقائع واتجاهات الخمسينات •

ـ ما اود ان اقوله هو انني وريث كل معرفة تاريخية . لان هذا من مهنتي . لست وريث الضغط الطارئ . عندما انظر للتاريخ. عندما استعرض التاريخ الانساني . والتاريخ العربي ، الاقي الاشياء . ثمة ناس عملوا وانجزوا وآخرون لم يعملوا ولم ينجزوا ، فالعلماء فريق من مغامرين . غامروا في سبيل المجهول . ليس المغامر دائما الرجل السياسي.

● اسأل عن « اللامغامرين » •

ـ « اللامغامرون » موجودون في التاريخ . اكثرية الناس من اللامغامرين .

● يلفت انتباهي حرص واضح جدا على

عدم الربط بين الاعمال التي كتبتها وبين تجربة راهنة او جملة تجارب • بينما ثمةاعمال تجريدية بمستوى تجريد هيغل مثلا ، لم تمنع صاحبها ان يرى في نابليون « روح العالم تمر على حصان امام نافذته » في يينا سنة ١٨٠٣ • انك تحرص على اقامة تعارض •••

ـ انا لا اقول هناك تعارض ••••

● هناك استقلال ••••

ـ ما استطيع ان اقوله هو انني كشخص حي ، مفكر ، لا اعزل نفسي مطلقا عن تجارب تحدث حولي . لا شك انا تأثرت كثيرا . لكن اظن انني اعبر عن نفسي بدقة عندما اقول ان تجربتي التي احاول ان اعبر عنها ليست التجربة الآلية لتأثري . انا ابن التاريخ على اوسع مداه ، والمستقبل بأوسع آفاقه . ماذا يعني التعارض ؟

● انه ضياع امكانية حصر المحددات والمسببات •••

ـ •••• المسببات والمحددات، نعم •••

● بينما كان استخدامك مستمرا للاسباب البعيدة والقريبة في الحدث التاريخي ، لماذا يملك حدث تاريخي اسبابا بعيدة وقريبة بينما عملك الفكري لا يخضع لنفس المحاسبة ؟

ـ بل يخضع لنفس المحاسبة . لم اقل انه لا يخضع انما انت كنت تشدد كل الطريق •••

● راوح تعليلي بين افلاطون وظاهرات الخمسينات ••••

ـ اذا كنت تريد ان تقول لي انني متأثر، انني ابن التاريخ من افلاطون على مداه حتى اليوم اقول لك : صحيح . ما اريد ان اقوله من البدء ، صدقني •••

● أكيد صادق •••

ـ انني ، انا ، كنت احيا زماني . لكن زماني يمتد ضمن خلفية التاريخ بمجمله والعالم كله ، بكامله ، والمستقبل بأوسع ابوابه . وهذا ليس تجردا . انا لا اقول هذه المسألة لا تهمني لانني اعمل لمتعة عقلية او لأرى الحقيقة . انا اتناول مشكلة لانني اشعر بمسؤوليتي بأوسع نطاق . تجربتي تجربة المفكر العربي الانساني .

● مع ١٩٦٤ ، ورغم وجود المفهوم ووجود زاوية المعالجة في «نحن والتاريخ»، بدأت تستخدم بصورة اوسع مفهوم الحضارة ، في كتاب «في معركة الحضارة» • من التأكيدات التي لفتت انتباهي «ان المعارك السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي معارك حضارية ، وتلخيص معركتنا : هي معركة التخلف الحضاري » • كان بدأ مفهوم التخلف يشق طريقه بشكل راسخ • يظهر كتاب « في معركة الحضارة » كتابا أكاديميا• هل شعرت بحاجة لأن تبتعد بعض الشيء عن تاريخ قلق ، مضطرب ، وربما مخيب ؟

ـ اي تاريخ ؟

● حتى ١٩٦٤ اثناء السنوات الاخيره بدا شيء من الخيبة التاريخية ، أخذت تتلاشى مشاريع واحلام منتصف الخمسينات •

ـ لا اعتقد القضية قضية خيبة . بل قضية اثارة . . .

● سعة المادة والنظرة . قياسا على الاعمال السابقة ، أدت الى خط في المعالجه أخذ يغلب على كتاباتك •

ـ في هذا الكتاب او في غيره انبه في المقدمة دائما لمسؤولية المفكر . مسؤولية المفكر هي المسؤولية الاساسية .

● في « معركة الحضارة » بلغ التأكيد على الربط بين مختلف الجوانب الاجتماعية درجة كبيرة من الدقة • التأكيد على وحدة الحياة المجتمعية وترابطها • التعريف بقوام الحضارة : المفاهيم الاساسية في الطبيعة ولما وراء الطبيعة وللحياة الانسانية والسلوكية • اريد ان اسأل في أي سياق تاريخ وسياق توليد المفاهيم طرح هذا التوسيع ؟

ـ طرح على اساس انني توصلت الى منطلق اساسي ، وهو ان مشكلتنا الاساسية هي مشكلة حضارية . اذن ان افهم ما هي الحضارة ، وان اعمق مفهومها .

● في التصدي مثل هذه المشكلة يتوقع القارىء حوارا مع طرف فكري أخذ يحتل مكانا بارزا في الثقافة العربية هي الماركسية• لكن يلفت انتباهي . في كل اعمالك ، ابتعاد مقصود او غير مقصود . عن السجال ، عن محاولة الرد على أي نقد . او أخذ مواقف محددة تتجاوز النثرات التاريخية السريعة • كنت انتظر . كقارىء . ان يدفعك تناول مسألة الحضارة الى مواجهة مع التيار الماركسي •

ـ لقد عالجت الماركسية كمفهوم حضاري كما عالجت غيرها . . .

● تطرقت الى المجتمعات الشرقية او الاشتراكية في فصل عن الوضع الحضاري المعاصر ••••

ـ . . . قبلها ، هناك معالجة للتعليل الحضاري وعوامل التغير الحضاري وتفاعل الحضارة . ولاختلاف هذا التعليل . تطرقت للماركسية كمذهب مثل بقية المذاهب وعالجتها كمذهب وبينت. سواء في معنى التاريخ او في مفهوم الحضارة . ما هي المنطلقات الاساسية للماركسية . وما هي ظواهرها . مثلا قضية التحتيم . انا اختلف مع الماركسية في قضيتين: تضع الماركسية ، اولا ، في المنطلق الاساسي، في اصل كل شيء . المادة . وثانيا في ان التطور التاريخي هو تطور محتم . . .

● ظل الحوار مع هذه الوجهة ضيقا••

ـ ما استثنيت الماركسية .

● لم تبد لك تيارا غالبا او آخذا في الغلبة يحتل مكانة محاور اساسي • رغم لا

ماركسية ريسون آرون الشهيرة المعروفة والمؤكدة باستمرار . فان حياته الفكرية حوار مع خصم يتناوله باستمرار من زاويته التاريخية . من زاوية تبني المثقفين له . أو تنظيم مجتمعات في ضوئه الخ ... لم يكن ذلك هما رئيسيا في كتاباتك . وليس الامر عيبا ...

ـ لا . ليس عيبا ! انا ما حاولت بهذا او غيره من الكتب اقامة حوار إن مع الماركسية او مع المسيحية .

● الاهم من الحوار مع الماركسية ، الحوار مع الماركسيين •

ـ الحوار مع الماركسيين لم يحصل • لم اجرب . لم انتقدهم الا من خلال بحثي العادي .

● « نحن والمستقبل » يرجعني الكتاب الاخير، انا شخصيا ، الى المفارقة التي تحدثت عنها في صدد « معنى النكبة » • كتبت « نحن والمستقبل » ، ثم اضطررت ان تخصص خمسين صفحة منه لكل ما يرد للماضي ، كتبت خمسين صفحة عن وضع لبنان والحرب الاهلية اللبنانية • في تحديدك ومعالجتك لها كتبت عن اختيارات المجتمع اللبناني بين التلاحم الوطني ، وهو فكرة معاصرة أو مستقبلية ، وبين التفرق الطائفي، وهو ارث ، بين الانفتاح على الشعوب العربية وهو أفق وبين الانغلاق دونها وهو ايضا ارث، بين الانتظام المنضبط والحرية المنفلتة ... الخ • اقول انه كتاب كتب في محاولة استشراف للمستقبل فرده التاريخ المباشر والمعاصر الى كل ثقل الاوزار الماضية • يبدو ذلك سمة لأكثر كتبك •

ـ ابدا ليست هناك مفارقة . لا اعرف لماذا تسميها مفارقة . فانا اطرح ان المستقبل غير محدد ، المستقبل اختيار واضح . وضعت اختيارات امام اللبنانيين واختيارات للقضية العربية • وامام الفلسطينيين ... اذا اردنا ان نصنع المستقبل علينا ان نختار هذا الامكان او ذاك . اذا اخترنا هذا كنا مستقبليين واذا اخترنا ذاك لم نكن مستقبليين .

● أتكلم على المفارقة لأنه طوال (٤٠) سنة تقريبا شددت على ربط العرب اكثر فأكثر بالعالم المعاصر ، بشيء سميته ثورة عقلية للعقلية الثورية ، باطار عام من العقلانية • طوال (٤٠) سنة كنت تكتب عبر احداث او ترد على ما يمكن ان يوصف بمنظور كتاباتك، باللاعقلانية • الا تبدو لك هذه اللاعقلانية متصاعدة ؟ ان محاولة بناء فكر هذه سمته في عالم يبتعد باستمرار واطراد عن هذه المحاولة تطرح مشكلة موضع المثقف العربي من تاريخه ...

ـ موضع المفكر العربي من تاريخه ومستقبله ايضا . . .

● ... من حركة تاريخه ...

ـ لقد شرحت في (٤٠٠) صفحة ما هو الاستشراق المستقبلي والتفكير المستقبلي

والقضية المستقبلية . ثم عدت وطبقته حاليا . اولا من نحن ؟ قبل كل شيء هويتنا ، وتخلفنا على نطاق عربي عام . ثم قلت لمصلحة التاريخ او لمصلحة المستقبل هذا علينا ان نصنع المستقبل . كيف يمكن ان نقلب هذا المجتمع ليكون مجتمعا علميا فاضلا . وشرحت ما معنى العلمي وما معنى الفاضل . انما في النهاية قلت ان تاريخنا لا يصنع نفسه ، والمستقبل لا يصنع نفسه . العالم يصنعه . اذا اردنا ان نخلق المستقبل علينا ان نتبع الطريقة المعينة التي تقود لصنع المستقبل . ان الوضع الحاضر لا شك يفرض علينا اختيارات : اما ان نكون من ابناء المستقبل ، واما ان نكون من ابناء الماضي . ومن الواضح انني اشير لان نكون من ابناء المستقبل وليس من ابناء الماضي .